حوار بين
وبين مريض :

التترف والتطرف.. فى الدين والسياسة

د. محمد شعلان

هذه حكايتى يا دكتور

معاناتى الآن أنى فقدت الإيمان بكل شىء .. أصبحت أعيش بلا هدف ولا معنى ، حتى لمتع الحياة التى كانت تكون لنسيجى الآلامى لم يعد لها طعم ، كذلك العقاقير – سواء تلك التى وصفها لى الأطباء ، أو تجار المخدرات المسموح بها أو الممنوعة ، من مهدئات ومنبهات ومسطلات – لم تعد تكون لتغيير وعيى بالواقع المؤلم ، أو بأحاسيسى بالألم . ولم أعد أقنع أنى مصاب بمرض نفسى . اسمه : اكتئاب ، أو ما شئت . إننى أبحث عمن أتحدث معه ليفهمنى ، ويساعدنى على فهم ما يحدث ، بغية أن أستعيد الرؤية ، وأجد للحياة معنى وهدفا .

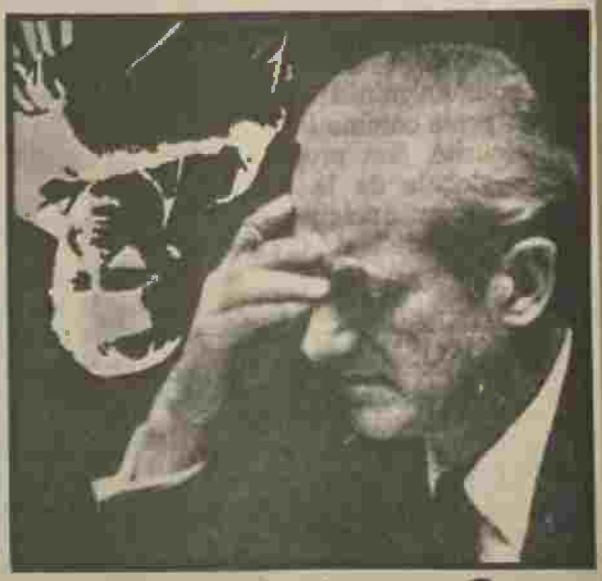

وبدأ القصة بشكل الدينية ، حين ترسخ فى ذهنى الصغير أن هناك خيرا وشرا ، وخالقا يحاسبنا على اختياراتنا . كان أبى رجل أعمال ناجحا ، ولكن العمل أبعده ، وفور أن من الله أن يجيا فى ترف . كان يحسن إلى الفقراء ، ويتبرع لبناء المساجد . ويؤدى مظاهر العبادة بدقة وانتظام . من صلاة وصوم وزكاة وحج ليت الله الحرام . كان يحثنا ، رغم ترفه ، على التقشف ، فقد كان عصاميا ، وبدأ حياته فقيرا وكان يحثنا على العمل ، ويحرمنا من الاستماع الذى كان يلهو به .

إلا أن حياة الترف التى كان يحياها كانت تغرى لنا بالاستماع ، يأمرنا فنطيع بشىء ، ويوحى لنا بالقدوة بفكره .

وبرزت صفة الاستماع عند المقارنة مع حياة الآخرين الذين كانوا يعيشون حولنا ، سواء كانوا موظفين صغارا أو كبارا ، أو عمالا وفلاحين ، ناهيك عن المعدمين الذين لا يجدون مقهرا للرزق . وازدادت المقارنة حدة ، حينما شاهدت الخدم الذين يقيمون معنا فى نفس المنزل ، وكيفهم لا يأكلون مما نأكل ، ولا ينامون على ما ننام ، ولا يلبسون ما نلبس ، بل لا ملكية لهم على أجسادهم ذاتها ، مثل الجوارى ، بل هم أسوأ حالا . فالجارية على الأقل كان يعترف بشرعية أمومتها لمن تنجبه ، ومالكها سيدال عنها إلى النهاية ، فلا يرمى بها فى الخارج بعد الاستغناء عنها .

ثم اكتشفت أن أبى الوفور ، وأصدقاءه ، يجسدون الكثير ، ويسهرون بين حين وآخر للمزيد من الاستماع . وكان أصدقاؤه بالطبع أثرياء مثله مرفهين . ولم أكن أجرؤ على مناقشته ، ولكنى علمت أنهم يجدون المبررات لكل المبررات . حتى إذا ما أفتوا قالوا : إن الله غفور رحيم ، وكيف يكون استغفارهم ناجما من القلب إن لم تكن هناك ذنوب يرتكبونها فعلا . فبدأت أتساءل عن معنى الثراء ، وكيف يظل أن يعمل بعض الناس ولا يكسبون ، بينما يستمتع بعض الناس بملايين كثيرة لعمل قليل أو بلا عمل .

وزادت تساؤلاتى فى صدرى أنى كنت مولعا بعمل الأسطى كارو ، وبحرمانى من الاستماع فى ذات الوقت الذى أشاهد مظاهر النعمة حولى كما كنت أرى المحرومين مثل حولى ، بل يعيشون معى فى نفس المنزل كخدم ، فى حال أسوأ من حال العبيد .

ومع تمردى وعقلى بما يعملى أناقش ، ولو مع زملائى أو أساتذتى ، بدأت رفضى لقيم أسرتى . ولكنى مع ذلك لم أرفض التدين برمته ، فلم يكن فى استطاعتى أن أستغنى تماما عن الله . فرفضت دين الترف الذى كان يجياه أبى ، ومع رفضى له وجدت نفسى فى طرف آخر للدين ، يدعو للعدالة الاجتماعية ، والحرية ، والكفاح ضد الظلم . فقد تعلمت من تاريخ الإسلام فى فجره ، ومن خلفاء الراشدين ثم من شهدائه ، ومنهم الحسين بن على ، ثم من الصحوات المتفرقة التى برغت بعد ذلك . تعلمت أن هناك وجها آخر للدين غير الترف ، وتطرفت ، وزاد من تطرفى أنى وجدت أن ذلك يرضى الآخرين ، بالأسرة الكبيرة ، بالعالمية من المواطنين من فقراء مظلومين ، ليس فى مصر وحدها بل فى العالم العربى والإسلامى ، بل بعالم الفقراء بأسره ، ووجدت غيرى من الشباب المثالى يطمئن بعالم أفضل . فتأخيا فى أسرة عوضنى عما فقدته من انتماء لأسرتى التى ترفت عليها وتطرفت عنها . وواسانى أنى كنت أنظر إلى المستقبل ، فإذا كان النصر العاجل لأسرة الترف اليوم ، فالنصر الآجل لأسرة التطرف فى الغد . فالزمن معنا لأننا شباب ، والسنوات أمامنا طويلة ، ولأننا مظلومون ، والظلوم دائم اليقظة يعمل لله ، ودائم البحث عن العدالة .

وكان من مزايا تطرفى أن أجد نفسى فى معركة أدافع فيها عن وجودى فى مواجهة أصحاب الترف ، وكأنى كنت أحلم بالاستشهاد ، أو أنى أطلب الطلب . فلا أخفى عليك أنى كنت أشعر بالذنب فى رفضى لأبى ، ومعارضتى له ، فقد كان كثيرا ما يستسلم أمامى ، ويكرر تأكيده أن لربه هى أصلا من أجل ، وفى النهاية آيلة لى .

وكنت أبحث عن معركة . فالمعارك تقوى العواعد ، وتغذى روح البطال من أجل الرسالة التى كنت أعتقد أنى حاملها . والمعركة تساعدنى على أن أؤكد استقلالى عن أبى . كان لابد من أن أجد أعداء آخرين غير أبى . وتما أن هويتى دينية فقد توجهت بالعداء نحو الأديان الأخرى ، أصارع معها . وكانت ، من حظى ، أديان الأقليات تتشكل عصبيتها حول عنصرية يسهل كشف عزلتها عن غالبية جمهور القراء والمظلومين . فاليهود حينما يتطرفون مثل . إنما يجدون أنفسهم مدافعين عن كونهم يهودا مظلومين كعنصر ، وليسوا كقراء فى مواجهة الثراء . كان من السهل أن أؤكد عزلتهم عن الجماهير التى تساندنى ، بأن أبرز ولاءهم لدولة أجنبية معادية ، تعمل بالتنسيق مع الدول الأجنبية المعادية ، التى كنت فى صراع معها – سواء كانت غربية سوفيتية أو غربية اطلنطية . والتطرف عند الأقباط كذلك يمكن من أن أعزلهم ، بأن أؤكد ذات الولاء للعنصر وليس للجمهور الغفير من غالبية الفقراء . فالتطرف هنا يعبر عن الشعور بالظلم ، كعنصر أقلية وسط أغلبية ، ويسعى للإنصاف للعنصر المظلوم ، وليس بين الفقراء والمظلومين من جانب والأثرياء من جانب آخر ، لم يكونوا الآخرين مثل على آبائهم ، بل على العكس ، كان ولاؤهم للأب والبابا بالتحديد يسبق ولاءهم لغنى ، فقد الشباب الثائر على ظلم الآباء ، والفقراء الثائرين على الأثرياء .. وكنت أؤكد لنفسى ذلك ، يرضى جميع الآباء ، من فيهم مثل البابا عندى . فإن كنت قد ثرت لمثل الشيخ الضعى فهو أم الشعور بالذنب ، لأن الجريمة التى كنت أتهاها لم تحدث ، لقد كنت أتنى ، ولم يشكل على ، أن أختلف من « بابا » أى من أبى « أب » . وهكذا وجدت فى رفضى لأجواء الأقباط والبيوت ، مبررا لرفضى لأبى ، الذى كنت أشعر بالذنب تجاهه ، فقد كان يائسا فى

مظهرا لاعتداد ، وخصوصا لصورة الـ « بابا » الشرير . لا يخفف من حدة هجومي على أبي ، وكان مما يساعدني على ذلك أبهة رهبة ، أو بسبب كاريزما أخلية ، يجاورون عليها وهالة بالنسبة لمحدثهم . وبالتالي يتطوون قوة غريبة الأهمية المفقودة . وما كان عدلا بالنسبة لهم كان في نظر الأغلبية تزويج امتياز يفوق التقبل العندي . ورغم أنه كثيرا ما تغلب الكبرة الشجاعة ، فقد كان من الطبيعي أن يكون رد فعل الأغلبية في سجايا كالتوازن ، أو تحالف الأغلبية من سيطرتهم ، يبدو كأنه اضطهاد لهم . وهكذا ليس لأولياتهم وآبائهم أن يكسبوا ولاء فلزائهم أو شبابهم . فلا يثوروا عليهم كما فعلت أنا مع أبي . لقد كنت في طرف ، وكانوا هم الطرف الآخر . ولكني كنت أواسي نفسي أني مع الطرف المظلوم المطالب بالعدالة ، وأن العدالة لا محالة سوف تنتصر .

ربع ذلك فقد كان هناك ما يؤرقني . فقد كان في أصدقاء أغبرهم من شباب يهودي وفيطي ، ومن الشباب المحد أيضا ، والذي اكتشف بعضه لنفسه نظرة أخرى ذلك الاتجاه . ثم كان منظرة في إخلاده ، كأنه عقيدة دينية - إنهها المادة ، وجنبا العالم المنظر الذي بلا طبقات . وجميعهم عالم اليوم ، وربنها ماركس وانجلز ولينن وغيرهم ، ووجدت نفسي فاتحا مشتركا بيننا جميعا . هو أننا كلنا نازون على ما ورثناه من آبائنا . ومحاولون جاهم أفضل . ولكنهم أيضا كانوا منظرفين في « دينهم » الجديد . وكانوا طرفا جديدا وجدت نفسي في تناطح معه .

وهكذا وجدت نفسي على طرف قاعدة ثلاث على الله الأقل . وفي مواجهتي لطرف آخر . واستمر الصراع ، ومحاولات الاستقطاب . فكل طرف يرغب في استمالة طرف آخر . حتى لتكون له الغلبة ، ويترجح على القمة . أصحاب الحق الغائبون أصلا يصيرون طرفا آخر . وكلما قوي طرف يحاربون للطرف المضاد . حتى يحفظوا التوازن . فترة يستميلون المتطرفين المتحدين تحت شعار بناء الدولة الاشتراكية العلمية الصناعية الحديثة . وفترة يستميلون المسلمين تحت شعار بناء الدولة الإسلامية ، واستعادة أمجاد الماضي . وفترة يستميلون الأقباط تحت شعار الديمقراطية والوحدة الوطنية . والفتح مجال لاستمالة اليهود تحت شعار السلام العالمي .

لقد أبغضت أبي كالأغلبية . كالعسكري في قطع التذاكر . يوافقني أني لست وحدي الذمية التي يغلب بها . ولكن يؤلمني أني أراه من خلفه . أصبح مراعا مداعبك الآن . وأتذكر الذي يترتب على ذلك الصراع تبعك من الرؤية السليمة . والتقرع خارجك . لقد حققت ما يوسعك أن تحققه من نجاح ولم يعد هذا التحدي يخرجك إلى العمل . وأصبحت الآن تواجه سؤالا عن حقيقة دورك في الحياة والمجتمع .

إنك تبحث مرة أخرى عن الأصدقاء والأهل مع الآخرين . ومرضك النفسي ما هو إلا هذه المرة المؤقتة التي تحياها ، وهي بداية الوقفة التي تقفها مع نفسك . لتعيد حسابك . وتعيد تشكيل دورك في الحياة وتعيد البحث عن طريق جديد . عن دين ولكنه هذه المرة ليس دين طرف ولا دين طرف في مواجهة طرف آخر . إنك تبحث عن دين يجمعك مع سائر إخوانك في الإنسانية . دين ينبع من داخلك . لا يفرض عليك من الخارج . ويقربك من ربك من خلال قربك جميع خلقه . بدلا من أن يقربك من فئة ضد فئة . ويبعث في نفسك الطمأنينة والمحبة بدلا من الخوف والكراهية .

« هل تلك أن تردني كل هذا الدين ؟ »

– لست بكاهن ولا حامل رسالة . ولكني طبيب . ودوائي الأول هو أنك كعريض يحتاج ويرجاء . ويبحث عن تخفيف لمعاناته . وعلى أية حال .. أعمل عن مشاعرك في هذه اللحظة ؟

« إني أشعر بمجموعة من الراحة أن تحكمت من بكورة مشكلتي . واقعا قادر على بداية الطريق . وأني وجدت من يستمع إلي . ويشاركني في الألم . ويشير إلى مصادرها .

– الألم الجيدة تحملها المشاركة . وهل كل فإن مشكلتك ليست خاصة بك ولكنها تعكس مشاكل المجتمع . بل الإنسانية . وسوف أقترح عليك كخطوة أولى أن تلقي بأعباء يعانون مثلك من العزلة . لتشتركوا في طرح المشكلة . والبحث معا عن العلاج في شكل جماعي .

« ولكن هذا لن يتهيأ عوائي لأنه سيحرمها من عزلة أعاني منها وحدي إلى عزلة أشترك فيها مع مجموعة مثل . لقد قضيت الساعات مع الزملاء نشكو فكر الواقع . وألامه حول أطباق الكافيار . وكؤوس الفودكا . وبعد أن تذكرت المجموعة فهالك خطورة أن انغلق على نفسها وتطرف هي الأخرى . كذلك تصبح عداة الفرد الواحد كل أعضائها نمط متكرر من الآخر . وهنا لابد من دم جديد – قد يكون مهديا منتظرا . أو اقتحاما على المجموعة أخرى تتفاعل معها وتثريها . وربما تتحداها وتحاربك بعيها . وبعد ذلك تتسع حدود المجموعة وتعود الكرة . حيا انغلق مرة أخرى . وتتحول إلى نمط متكرر لفرد واحد . وتحتاج مرة أخرى إلى تغيير وتفاعل مع الخارج .

« معي ذلك أن أثري لن ينتهي تماما . ولكن فقط سوف تتسع الدائرة التي يتحقق فيها بالمشاركة والتفاعل .

– الصحة النفسية لا تساوي اقتحام الآخر الذي هو الوجه الآخر لانغلاق الذات . وكلاهما مظهر للمرض الإنساني الذي هو الموت بعينه .

يضحي به في كل حركة . وقررت منذ صغري أن أضع يدي في يد الصغار . وأن أستمع إليهم . وكنت متمثلا قد منعت الكبت والاضطهاد . وكان الإيحاء الذي كان أبي يوحي لي به من خلال سلوكه ، يجد صدى في نفسي . ويلح علي . وكانت رغبات جسدي تلح علي . ووجدت ما كنت أحب عنه في التقائي بأصدقائي في أرضية واحدة . والتقينا حول الحد الأدنى الذي يجمعنا . وهو رفضنا الواقعي . وحينما تساءل أفضل . ووجدت أنه عند هذه النقطة لا فرق بيني وبين رفيقي ريبودي ومشعبر . سعيا للطرف الذي كان يوحي به الآباء . وتذوقنا منه العبارات في صور اللغة المختلفة . واعترفنا من فضلات الطرف الذي كان يتم به الآباء . ولكنا لم نشبع . وظمأ الريد . وتعلمنا احتضار الطريق . وأجدنا قواعد اللعبة . واكتشفنا طبيعة الأحوال التي تخلق لنا الربح السريع . وفعلا صرنا من أصحاب الطرف . ذات الطرف الذي نرنا عليه ؟

وهنا ارتبكت واحترت نفسي . وأصبحت لا أعلم ما أريد . فقد وجدت نفسي أحجر من أن أكرر ما كان يفعله أبي . أعيش في ترف . وفي ذات الوقت أدفع ثمنا . فقط ضمن هم في الأطراف . فالنتيجة أني فقدت الطرف وعاديت الترف . ووجدت نفسي وحدا لجميع ولنفسي . ومعزلا وأتصارع في داخلي . وعندئذ حضرت إليك . لأني لم أعد أجد معنى ولا أعي فقدت الطرف والطريق . فقدت الدافع والحيوية . أصبح كل شيء بلا طعم . لقد حاولت أن أعود لممارسة الطقوس الدينية ولكن حتى هذه الممارسة كانت حركات بلا معنى .

« صديقي .. إنك إنسان تبحث عن ارتباط مع جميع إخوانك في الإنسانية . دون تمييز لعنصر أو لغة . ونحبا معهم الآلامهم وأمالهم . وتضع يدك في يدهم . ثم وجدت نفسك بعد أن خضت معركة الحياة مدافعا عن وجودك الذاتي . في عزلة عنهم . لقد انشغلت بناء ذاتك – أعرفك وما تحتاج إليه من فائض من العائد المادي لحمايتك . يوفر لهم رفاهية التعليم . وجدا أدق من الطمأنينة على مستقبلهم . عن ارتباطك القديم وعلاقاتك الذين انشغلوا هم أيضا بذواتهم . وانشغلت عن انهيارك للأسرة الكبيرة بمن فيها من فقراء ومظلومين . وفي ذات الوقت لم تستكمل انتماءك لطرف الآباء المترفين . لقد صرت أنت وزملائك في موقع الأبوة والمسئولية عن مصير الأسرة . ولم يعد يطيق أن تدرسوا فيه الآن بالرفض المطلق بلا حمل ولا بالرفض المشكل بأعراف فضلات الترف ولا بالرفض الحالم . إنك ترفض « الترف » ولكنك أيضا ترفض « الطرف » . وبين أن تتحمل مسئوليتك القيادية كأب حفظ كيان الأسرة . وما يترتب على ذلك من التربح على القمة بما فيها من مناصب . وبين أن تعود لواقع الآباء . وهو مستحيل . لأنك تتعاطف بنفس القدر مع كل طرف . فأنت ضائع . والصراع الذي عشته جارحك في صورة الاتجاهات الاجتماعية ولكنه الصحة أن تحيا وتموت . وتفرح وتحزن . تغضب وتنام . تنضج وتنطفئ . تتعرى وتلبس . أنت تنام الآن وتتعرى وتفقد الإحساس . وهذا جانب وهو جزء من الدورة الطبيعية . فلا تقاوم . بل اتركه يفعل فيك فعل الدائرة . ولكن حد عند الرؤية إن هناك مرحلة قادمة تنتظرها . فتعلم فيها . وتبدأ خطوة على طريقها . واعتبر أن ذلك هو الدواء المر الذي عليك أن تأخذه لتشفى . إني أرى الآن الدوائر المتزايدة الاتساع . التي كنت انتمي إليها . وكيف كان احساسي بأنها آن هذا نهاية المرارة وأن ما وصلت إليه هو الحل . وما حققته هو الخلود . وبعد كل مرة اكتشف اتساعا جديدا للدائرة . ونهاية الدائرة الدائرة السابقة . كأنها الموت الذي كنت أعتاده . والآن أستطيع أن أقبل انتماء لدائرة محدودة في ذات الوقت الذي كنت أعتاده الآن أستطيع في ذات الوقت الذي أرى نهايتها وضرورة الانتقال إلى الدوائر الأوسع . من حق أن أنتمي إلى الترف أو الطرف الآخر . ولكن من الخير أن أتجاوز الأطراف . وأوسع دائرة انتماء . لكني أبقى حيا . أنمو وأتطور .

إذا كانت مسألة أخير عن مآل المسلمين فهذا حق في مرحلة . على ولكن أن أعيد انتماء للمسلمين جميعا وإلا اعتزلت . وإن كنت مواطنا مصريا فهذا حق أيضا ولكن على أن أذكر أيضا انتماء العربي والأفريقي والآسيوي . وإن كنت ضمن أقلية مضطهدة فعلي أن أذكر كذلك انتماء الأغلبية ولا أنعزل عنها . إني أكاد أعاف على إسرائيل بعد أن كنت أعاف منها .

فيا مصر لترى نفسها فتح أبوابها لجميع أخواتها – تصر إسرائيل على أن تحتزن حق أبنائها اليهود في وطن أوسع . فيما تنكر نفس الحق للفلسطينيين

« هل أنت مستعد للتفاعل مع مجموعة تمثل إسرائيليين وتواجههم بذلك ؟ »

« إنه خير إمكانيتي على الخروج من عزلتي . ولكني مستعد للتفاعل مع الشيطان . وأن أذهب للجحيم ذاته للقائه . مستعد أن أضع أني أبغضها عنصري وفاشستي ومتعصب دينيا ومنكر على الأطراف الأخرى فيما أهم به . مستعد أن أواجه بكل جبروتي . فعلي أسوأ الفروض هي معركة أنتظر بدلا من معركة رصاص ودماء وعلى أحسن الفروض سوف أنتهي لاصطلاح جديد . وأكتشف المزيد منها . أضع الوقائع والأوراق . لم يعد لدي شيء أخفيه . كفاني شكوى وألما . وأخرجني من العيادة ومن الرقص . ودعني أتكلم وأفعل . وأصرخ وأبكي وأضحك وأفعل . هناك .. مع الناس . جميعا ! »

أعني لك التوفيق لأنك لم تجد فروف تضع لي وتجري دوائر أخرى خرجا من عزلتك .

سأخرج . حد أعدك . لقد دفعها اقتناع علاوة على أنه من الآن سوف يتولى العلاج أوروبا بإلقاء عنك . وفي المقابل سوف أقبل هذه مجازا سيئا هنا فيما يبدو . وعندما كانت تعمل استعدادك عن إلقاء نفسك . أعمل صندوق القمامة أعمل بها من أي إنسان